من تراب الطريق! (١٧١) المرفأ ! (*)

مهما كبر الإنسان، أو تقدم به العمر، أو ارتفعت المكانة - يحتاج دوما إلى مرفأ .. يأوى إليه حينا أو يلقى همومه، أو يضع رأسه على كتفه ليبكى ويغسل أحزانه، أو يستمد التشجيع والثبات والثقة، أو ينشد النصيحة، أو يتلقى العون والمدد .

ظللت ثلاثين عاما أنعم بهذا المرفأ . تلقانى محمد عبدالله محمد وأنا أقترب من الأربعين، فمنحنى أبوة عريضة، وأستاذية معطاءة، وعاطفة متفهمة حانية .. أعطانى من علمه وأستاذيته ما جعلنى من صناعة يديه .. ولكن أميز ما شملنى به - هو أبوته الحانية، وواحة الأمان التى ألجأ إليها حين يحزبنى أمر، أو تلم بى ملمة، أو تستعصى علىّ رؤية .

لازلت أذكر أبوته الحانية عندما ذهبت إليه شاكيا من فقدانى تدفقى بعد أن لامسته فى إحدى القضايا وبهرتنى عظمته وقوة عارضته وعمق أفكاره، فهانت أمامى الفصاحة والبلاغة اللفظية، وتضاءلت أمام العبقرية العقلية اللامعة . يومها اهتزت ثقتى فى الفصاحة وأساليبها، واهتزت خطوط التوصيل بين العقل واللسان، وتعثر التدفق وانحبست الطلاقة، فذهبت إليه أشكو ما أنا فيه، فإذا به يخفف روعى، وينتشلنى من وهدتى بعبارة واثقة حانية لازلت أحفظها عن ظهر قلب . قال لى : " لا تقلق أنك توقفت وتأملت وراجعت . كثيرون يأتون إلى الحياة ويفارقونها كما دخلوها

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/١

دون أن يتوقفـــوا أو يتـــأملوا أو يراجعـــوا . توقفـــك يعنـــى أن " شجرتك طيبة وستورق " .

من يومها فى السبعينيات - لم أفارق هذا المحامى العلامة المفكر الجليل حتى فارق دنيانا فى أوائل القرن الواحد والعشرين . لازلت أذكـــر كيـــف وجدت لديه المرفأ حين ألمت بى ملمة شديدة، حزبنى أمرها .. ولم يأخـــذ بيدى ويكفكف عنى إلاّ أبوة هذا الإنسان العظيم . ظل محمد عبدالله محمـــد لأكثر من ثلاثين عاما المحور الحاضر فى حياتى . قد مرت على رحيلـــه ثمانية أعوام، ومع ذلك لا يمضى يوم دون أن أتذكر محمد عبدالله محمـــد، أفتقده وأترحم عليه ويوحشنى فراقه . لم أعد أجد المرفأ الذى كنـــت ألجـــأ إليه، ولا الأنيس الذى كان يؤنس عقلى ويهدى خطاى وينير طريقى .. كم أدرك اليوم أننى بأشد الحاجة إليه، وأتذكر كلماته أن غربتى فى المحـــيط سوف تزداد . لماذا يا محمد بك ؟! فتـــأتينى كلماتـــه العميقـــة أن النـــاس الخلصاء للحق والحقيقة تصيبهم الغربة على الأيام وسط محيط يضمر فيه الإخلاص وينطمر الوفاء وتجف القلوب . كانت كلمات محمد عبدالله محمد هى الموحية لمقال كتبته من نحو خمس سنوات بعنوان: " غربة القريب " !

كم أحس بالغربة فى هذا الزمن الكسيح، وكم أحس بالوحـــشة الـــشديدة وسط محيط نضبت فيه معـــانى الوفـــاء وتلاشـــى الإخـــلاص وتفـــشت المظهريات وتقلص الصدق وضمرت المشاعر !

نظرت حولى وسط الهجير الذى أحاط بى وأخذنى من كل جانب، فلـــم أجد "المرفأ " .. رحل محمد عبدالله محمد، ولم أجد من يملأ مكانه الشاغر. سيظل مكان محمد عبدالله محمد شاغراً لا يملؤه ولا يقدر على ملئه أحـــد. محمد عبدالله محمد هو الأب الذى تيتمت بعده للمرة الثانية بعد يـــتم الأب. وهو السند الذى لم أجد عوضاً عن عقله وقلبه وفهمه وعطائه، وهو المعنى الذى تاهت واضطربت من بعده المعانى!!

أبى الروحى محمد عبدالله محمد . كم أوحشتنى. يرحمك الله رحمـــة واسعة .. ويلهمنى الصبر والعزاء حتى ألقاك !